طرائف من العصر المملوكي :

الروح القومية

للأستاذ محمود رزق سليم

الروح القومية عاطفة عامة ، وإحساس مشترك بين بني الوطن الواحد ، تشعرهم بأنهم مجموعة من الناس ، من الخير لهم أن يأتلفوا ويتحدوا ، ليكون لهم من وراء ذلك قوة يستطيعون بها أن يتغلبوا على صعاب الحياة وعقباتها ، في الداخل والخارج ، وتحدد لهم أهدافاً خاصة يرون فيها حفظاً لكرامتهم ، وإحقاقاً لحقوقهم ، وتغذية لنزعاتهم ، وإقراراً لآمالهم .

ويتركز حب هذه الأهداف في نفوسهم تركز العقيدة ، إيماناً بها وإيثاراً لها . لذلك يسعون جاهدين في سبيل بلوغها ، مضحين بكل مرتخص وغال ، من رأي ونفس ومال .

والروح القومية في الأمة مثلها مثل الكائن الحي ، يولد ويتغذى وينمو ويقوى ويعمل ويوجه . ولها عوامل لميلادها وغذائها ونموها وقوتها ، كما أن لها عوامل مضادة مناقضة ، إذا هي صادفتها أضعفتها ، وكبتتها وأماتتها .

وعوامل نموها وقوتها كثيرة متعددة لا مجال لحصرها والحديث عنها الآن ، ولا لتوضيح أثرها ؛ ولكننا نذكر أن من بينها اتحاد أبناء الوطن في الوطن واتفاقهم في الجنس واللغة والدين وتجانسهم في الثقافة وتعرضهم لعوامل اقتصادية مشتركة أو لأخطار خارجية أو داخلية متشابهة ، وكذلك قيام أفذاذ الرجال من بينهم وقادة الفكر الذين يتزعمون نزعة وطنية خالصة من الشوائب ، فيوقظون وينبهون ويحمسون ويوجهون ، ويضرمون نار البعث والنشور ، حتى تفيق الأمة من سباتها ، وتتنبه من غفلتها ، وتعرف لنفسها كرامتها وحقها ، وتسعى لإدراك آمالها .

ومن عوامل إضعافها تتابع الغارات الخارجية ، وطول العهد بالاستعمار ، وضعف الثقافة واضطرابها ، وانتشار الأوباء واستبداد الولاة ، ونحو ذلك .

وبمقدار ما يتاح للأمة من عوامل القوة ، تذكو فيها الروح القومية ، وتنشط النزعات الوطنية ، ويقوى الرأي العام ، ويفرض مناهج الأمة في السياسة والإدارة والاقتصاد والتعليم والأوضاع الاجتماعية ، وغير ذلك .

وبعد فهل كانت بهذه البلاد المصرية العزيزة إبان العصر المملوكي روح قومية ونزعات وطنية ترمي إلى المحافظة على الكرامة العامة ، ورعاية الحقوق ؟ وإذا كانت هناك روح ، فما مظاهرها وما عوامل حياتها ؟ وإن لم تكن هناك روح ، فما الأدلة على ذلك ، وما الأسباب التي وجهت الأقدار سهاماً إلى هذه الروح ، فقضت عليها ؟

الحديث في ذلك يطول ، لا يستوعبه مقال واحد ؛ إذ البحث فيه يتطلب النظر الطويل في التاريخ وفي النظم الإدارية والأحداث الاجتماعية ، وفي أنواع الثقافة وأصباغها ، وتتبع نزعات العامة ، وتلمس مصادفاتها التي تخرج فيها عن وقارها ، وعن حياتها الآلية العادية ، في تلك العصور الوسطى التي امتحنت فيها الأمة بطغيان سلاطينها واستبداد أمرائها وعبث جندها وتراخي كثير من علمائها عن إصلاح إدارتها .

لقد انضوت مصر تحت اللواء العربي ، واندمجت في نطاق الأمم العربية ، بعد الفتح الدولي . ولا غضاضة على روحها القومية من هذا الانضواء والاندماج ، ما دامت قد رأت في الإسلام عدالة فياضة ، ومساواة كاملة ، وأخوة نقية ، وأنست في الحاكم الإسلامي رعاية عامة ونزاهة تامة ، وتسامحاً كريماً ، وحباً للخير .

ولكن جرت الأحداث في الدول الإسلامية ، بعدُ ، على غير ما يشتهي الإسلام ، فانساقت مصر إلى الانفصال والاستقلال وأخذت معهما نموها ، واستردت روحها القومية حريتها في الظهور والعمل .

وبدأ ذلك بدءاً جيلا منذ العصر الطولوني ، وما زال حتى كان تمهيداً حسناً للعصرين الفاطمي والأيوبي اللذين استقلت فيهما مصر استقلالا كاملا أكثر من ثلاثة قرون ، وغزت جنودها باسمها في البلاد المجاورة وفرضت سيطرتها ، وحملت أعباءها كاملة إبان الحروب الصليبية .

فلما آلت سلطنة مصر إلى حكم المماليك وجدوا فيها أمة مستقلة غازية حاكمة اتسعت رقعة مملكتها خارج حدودها ، ومنيت

ينشر ثقافتها عناية محمودة ، فوجدوا من هذا الأساس الوطيد لبناء مجيد .

وكنا نرجو لو أن المماليك نهجوا في سياستهم الداخلية منهجاً يرمي إلى إعزاز الشعب وإنهاضه ، والسمو بمستواه الروحي ، واتبعوا إزاءه هذا النهج الحميد الذي انتهجه والي مصر ومحييها الكبير محمد علي ، بعدهم بنحو ستة قرون .. إذاً لاستطاع الشعب المصري أن يغير وجه التاريخ ، وأن يفرض سيادته — على الأقل — على هذه الرقعة الواسعة من غرب آسيا أكثر مما فرض . ولتحققت لمصر على يدهم ، أحلام محمد علي ، التي صادفته عقبات لم يكن لها وجود في العصر المملوكي ، كانتهار الدول الأوربية به ، ووقوفها سداً منيعاً وعصبة واحدة في سبيل توسعه . ولكن المماليك تجاهلوا الشعب وأنكروا مواهبه وتناسوا حقوقه ، وفرضوه بقرة حلوباً تدر لهم وهم ملاكها .

حقاً ! قد كونوا لأنفسهم جيشاً عظيماً كثيفاً مزوداً ، حفظوا به كيان دولتهم وفرضوا هيبتها ، ووسعوا رقعتها ، وحكموا به فيما حكموا البلاد الشامية والحلبية والحجازية ، حتى أصبحت سلطنتهم أقوى سلطنات المسلمين شرقاً وغرباً . وفي هذا ما فيه من إعزاز لمصر ، وتقوية لمستوياتها ، وتنشيط لروحها .

غير أنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، وواشوا للروح القومية سهاماً قاتلة جديرة بالقضاء عليها ، قمينة بأن تورث في النفوس ضعف الثقة بكفاياتها ، والارتياب بمواهبها ، والشك في نياتها .

لقد كان منهم الجافي الطبع الكثير العسف ، المتتابع الجور السريع إلى تقرير الضرائب الفادحة ، العاجل إلى المصادرات الظالمة ، المبالغ في فرض الغرامات المالية والعقوبات .

حقا كان السلاطين والأمراء في طليعة ملوك الإسلام وأمرائه احتضاناً لشرعه ، وتشجيعاً للعاملين على نشر سننه ، واحتفاظاً ببلاده . ولقد احتضنوا الخلافة بعد زوالها من بغداد ، فجددوا لها شباباً ، وألقوا عليها ثياباً ، وأنشئوها نشئاً آخر منذ عصر الظاهر بيبرس . وهي على علاتها قد جعلت القاهرة — فيما جعلها — رمزاً وعموراً تطيف به قلوب المسلمين .

ولكننا لا ننسى أنهم كانوا يبايعون أهل البلاد وعامة شعبها في الثقة والجنس ، ولم يحاولوا السير خطوة واحدة في سبيل محو هذه الفوارق الأصيلة الجوهرية ، التي من شأن بقائها وطول قيامها أن تصيب الروح القومية في الصميم ، وتعمل على عدم الكيان الوطني ، والفرقة بين عناصر الأمة .

بل لا نغلو إذا قلنا إنهم بكثير من تصرفاتهم ، وبألوان من فهمهم السقيم قد زادوا هذه الفرقة وعملوا على هذا الهدم .

ونقصر حديثنا هنا على ثلاثة عناصر ذات مساس مباشر بالنواحي المعنوية في النفوس ، مبعث الروح القومية الصحيحة ، وهي ملكية الأراضي الزراعية ، والجندية ، والتعليم .

أما ملكية الأراضي الزراعية فقد حرموها على أهل البلاد ، وقصروها على الطبقة الحاكمة ، وهي المكونة من السلطان وأمرائه وجنودهم ، ولعل لهم عذراً إذ وجدوا مثل هذا النظام الإقطاعي كان قائماً من قبلهم في عهد بني أيوب وغيرهم ، وقد قسموها على أنفسهم ، واتبعوا في تقسيمها أحد نظامين يسمى كل منهما « الروك » وهما الروك الحسامي نسبة إلى ملك مصر حسام الدين لاجين ، والروك الناصري نسبة إلى ملك مصر الناصر محمد بن قلاوون .

والنظام الناصري هو الذي اتبع في أكثر أعوام العصر . ويتلخص في أن الأرض الزراعية تقسم إلى أربعة وعشرين قيراطاً .. للسلطان منها عشرة ، وللأمراء والجنود أربعة عشر . ويختلف عنه النظام الحسامي في نسبة الأنصبة .

ثم قسمت الأراضي إلى قطع ذات مساحات مختلفة ، كل منها يسمى إقطاعاً . يهب السلطان منها ما يشاء للأمراء والجنود في حدود النسبة المبينة المتفق عليها . والإقطاعات لا تورث بل ترد إلى السلطان بموت أصحابها . وكذلك يستردها السلطان إذا شاء لسبب من الأسباب ، أو يستبدل بها غيرها .

وصاحب الإقطاع يستغل أرضه وينتفع بثمراتها كما يشتهي وفق هواه ، مستعيناً بمن يسكن في الإقطاع من الزراع .

ونحن لا نريد هنا أن نفيض في وصف تلك النظم الشائنة . وإنما هنا أن نشعر القارئ الكريم بما كان يعانيه المواطن المصري ، وبخاصة الزراع ؛ فقد حرم عليه أن يملك أرضاً ولو فيها جده وأبوه ، وبناه وبنوه ، ووهب لها كل ما في قلبه من حب ،

وما فى جسده من قوة . ثم هو لا ينتفع بشيء من غلاتها يتناسب وما يبذل فى سبيله من جهد وكد وكفاح وعرق . فأية غضاضة ترين على نفسه وأية مرارة تفيض على فؤاده ، وأى ضعف ينتاب روحه ، وأى وهن يصيب معنويته حينما يشعر بما يعانيه من حرمان وقسوة وشظف عيش ... ؟

لقد عرف الزارع حينذاك بأنه « فلاح » . فقد قال المقريزى ما نصه : « ويسمى الزارع المقيم بالبلد « فلاحاً » قراراً ، فيصير عبداً قِنّا لمن أقطع تلك الناحية ، إلا أنه لا يرجو قط أن يباع ولا أن يعتق ، بل هو قن ما بقى ، ومن ولد له كذلك » .

وقد لبث الفلاح المصرى محروماً ملكية أرض بلاده الزراعية والانتفاع الحر بثمراتها ، حتى صدرت لائحة الأراضى فى عهد سعيد باشا ، فأباحت له الامتلاك والانتفاع ، لأول مرة .

أما الجندية والتعليم فقد سبق لنا أن أشرنا إليهما فى بعض هذه المقالات . ولقد كان بالبلاد نوعان من التعليم : عسكرى وشعبى . أما التعليم العسكرى فقد كان مقصوراً على طائفة المماليك دون سواها لكى تتكون منها جنود الدولة والطبقة الحاكمة من أمراء وسلطان . وكان المدد التقليدى لها ، المماليك الجدد الطارئين على البلاد أرقاء من الأسواق الخارجية . ولا يسمح لأى فرد من أفراد الشعب بالانتظام فى سلك الجندية ، ولا أن يتعلم فى طباقها . كأن المهارة العسكرية وقف على طائفة المماليك دون سواهم ، وموهبة خاصة خلقتها العناية فيهم .. وفى هذا ما فيه من إضعاف للروح القومية ، وقتل للثقة بالنفس ، فكنت ترى الشعب وكأنما استقر فى أفئدة أبنائه أنهم لا يصلحون لحرب أو ضرب ، وأنهم غير أكفاء للدفاع عن أنفسهم ووطنهم .

غير أن من الإنصاف أن نذكر أن الوطنى المصرى الصميم لم ينعم بالانتظام فى سلك الجندية ببلاده منذ زمن بعيد جداً ، قد يصل إلى ما قبل العهد الرومانى ، ولم يرد إليه هذا الحق الطبيعى إلا منذ النهضة الحديثة فى عهد محمد على .

أما التعليم الشعبى فكان فى جماع أمره دينياً ومكانه المساجد وما شابهها من دور التعليم . وقد أغدق عليه السلاطين إغداقاً محموداً ، وعنوا به عناية مذكورة مشكورة ، وكذلك فعل الأمراء والرؤساء .

وقد وجد الشعب فى هذا الضرب من الثقافة شيئاً يعوضه ما حرمه من التعليم العسكرى ، فكان فيه متنفس لمواهب أبنائه . ومن حسن الحظ أن طائفة المماليك لم تشارك الشعب فى الأخذ من هذه الثقافة بنصيب إلا لماماً لماماً — وقد يكون هذا من سوء الحظ كذلك — فاتسع نطاق العمل أمام أبنائه الذين يتخرجون فى هذا التعليم الشعبى الدينى ، وعموم المعممين ، ووكلت إليهم مناصب القضاء الشرعى ، والكتابة ، وما إليهما من الأعمال .

وأهم ما يشوب هذا الضرب التعليمى أنه كان يقدم إلى الشعب صدقة عليه وإحساناً ، لا على أنه حقه يؤدى إليه .

ومهما يكن من شىء ، فاختلاف الثقافة هذا الاختلاف الصارخ بين المتمصرين ، وحرمان الشعب من التعليم العسكرى — فضلاً عن الاختلاف فى اللغة والجنس — كان له أثره فى تشعب هذه الأمة والتفريق بين طوائفها ، وخلق جو من الشقاق والحقد والشك بينها .

وهذه العوامل كلها من دأبها أن تشيع الفرقة بين طبقات الشعب ، وأن تسلط بعضها على بعض ، فيستأثر البعض بالنعيم والسلطان ، ويبوء الآخر بالفقر والحرمان . ولا يتحقق بينهم معنى التعاون الصحيح الناشئ عن الشعور العميق بالواجب ومقتضياته . ولهذا يروى ابن إياس أن الشعب امتنع عن دفع الضرائب للأشرف طومان باى سلطان مصر حين الفتح العثمانى مع حاجة هذا السلطان الشديدة إلى الضرائب المذكورة . وكانت حجة الممتنعين أنهم لا يدرون حينذاك لمن البلاد ! أللمماليك هى أم للعثمانيين الغازين ؟ فهم ينتظرون ريثما ينجلى القتال ويُعرف ولى أمر البلاد الشرعى ، فتؤدى إليه الضرائب ...

على أن جميع العوامل التى انتابت الأمة المصرية فى ذلك العصر ، لو انتابت أمة غيرها لقضت عليها القضاء الأخير ، وشتتت شمل بنيها ، وفرقتهم أيدى سبأ ، ولعانى الزمان معجزة إذا هم بجمع شملها ولم شعثها مرة أخرى .

ففى بقاء هذه الأمة ، وفى حرصها على الذود عن كرامتها ، والدفاع عن حقها ، والسعى لإدراك آمالها ، ما يدل دلالة واضحة على مذخورها العظيم من القوى الروحية والمقومات المعنوية .

وقد بدت منها هذه الروح فى عصر المماليك فى مناسبات كثيرة ومظاهر جمة . وأبرز تلك المظاهر هذه المكانة التى تبوأها علماء الدين وفقهاء الشريعة ، فقد كانوا من صميم الشعب ونشأته وآلت إليهم — كما نوهنا — مناصب القضاء والكتابة والتدريس والفتوى ورعاية الوقف وأموال اليتامى وما إلى ذلك ، فأصابوا حظاً وفيراً من الفقه والعلم والدين والمال جميعاً ، أنبت فى نفوسهم عزة ومنعة ، وفى أفئدتهم أنفة وإباء ، فكان كثير منهم يتأبى إلا على الحق ، ويترفع إلا عن العدالة . وكانوا بطبيعة نشأتهم ، وبطبيعة عملهم الرسمي وغير الرسمي ، ألصق بالشعب وأدنى صلة به وأكرم هيمنة عليه ، وأقدر على التأثير فيه . ولهذا خشيهم السلاطين وتملقوهم لكي يدرءوا عن أنفسهم منبة سخطهم ، ورحبوا بالوافدين منهم من الأمصار الإسلامية ، الفارين من وجه الطغاة والغزاة ببلادهم . وأخذوا يستشيرون النابهين منهم فى كثير من أمور الدولة ، وبخاصة إبان الأزمات .

ومنهم عز الدين بن عبد السلام الملقب بسلطان العلماء ، كان ذا مهابة وجلال ، توقف عن مبايعة الظاهر بيبرس بالسلطنة ، فعطلت المبايعة حتى ثبت له حقه . ومنهم أمين الدين يحيى الأقصرائى الذى كف يد قايتباى — على قوته وجبروته — عن المساس بمال الوقف ، وقد أراد الاستيلاء على شيء منه للانفاق على حروبه ، ولهذه الحادثة أشباه .

على أن العلماء أنفسهم كانوا لا ينون يبذلون البذل الشديد والجهد الجهيد فى نشر الدين القويم بين الناس ، وبث الشريعة السمحة ، والدعوة إلى العمل بها واتباعها ، وتمييز الحلال من الحرام ، فقصدوا للتدريس العام فى المساجد ، وتصدوا للفتوى العامة ، يقصدهم من أجلها القصاد ، ويراسلهم بها الرسلون من لجاج العالم الإسلامى ، فنهضوا بهذا العبء أفضل نهوض ، وجرى الجدل بين بعضهم والبعض بسبب هذه الفتاوى والمسائل . والعامة تترقب نتيجة الجدل وعاقبة النقاش ، وتتعصب للبعض على البعض ، وتتحيز لفريق دون فريق ، فكان من وراء ذلك حركة ذهنية فكرية لا بأس بها ذات مساس بالعقيدة ، ووجد الناس فيها عوضاً عن هذا الكبت السياسى ، وبديلا من هذا الحرمان العسكرى ، ومتنفساً عن هذا الاختناق .

ومن المظاهر الحية لتلك الحياة الفكرية المحاكمات التى جرت على بعض العلماء المجتهدين — كابن تيمية الحرانى وتلميذه ابن القيم — بسبب بعض آرائهما وأدى ذلك إلى سجنهما . واشترك فى الجدال عدد جم من أفاضل علماء العصر ، وألفت فى موضوعاته شتى الرسائل والمؤلفات .

وفى عهد الأشرف قايتباى قامت فتنة كبرى بين الدماء وتابعهم فيها العامة ، واشترك فى لجتها العلماء . وكانت بسبب الشاعر الصوفى عمر بن الفارض — أحد شعراء العصر الأيوبى — وما ساقه من ألفاظ وعبارات فى تائيته الشهورة ، مما رمز به إلى الذات الإلهية . فكفّره بعضهم ونسبه إلى الحلول ، واعتذر له البعض بضيق اللغة عن أداء معانيه النفسية ، وكانت ضجة كبرى ظلت زمناً ، وألفت فيها الرسائل والمقالات والبحوث والأشعار ، وأوذى بسببها بعض العلماء ، حتى حسمها السلطان بفتوى كتبها شيخ الإسلام زكريا الأنصارى ، وكانت فى صالح ابن الفارض .

وإذا علمنا أن الدول الإسلامية فى تلك العصور كانت تقوم على أساس من الدين متين — والدين أهم دعائمها — تبين لنا خطر مثل هذه الفتن والمشكلات ، وفهمنا أنه تمت بصلة ما إلى سياسة الدولة وعقلية الجماهير ومشاعرهم .

من هذه الحوادث وأشباهها نستدل على أن روح المعارضة والإقدام على النقد كانا على ضرب من الحياة محمود ، والنقد والمعارضة الصالحة بعض مظاهر الروح القومية ومقومات الرأى العام

وقد سبق لنا فى إحدى هذه المقالات أن تحدثنا عن النقد الاجتماعى وبينا كيف تناول كثير من الأدباء والشعراء الحياة الاجتماعية بالنقد المر السافر ، فنقدوا الأسرة ونظامها وعلاقات أفرادها بعضهم بالبعض ، والنظام الإدارى وما فيه من فوضى واضطراب وقلق وسرقات وادعاءات ورشوة ومحاباة وظلم ، وما بين طوائف الأمة المختلفة جنساً ولغة ودينا من أحقاد وإحن . وقد مزج بعض الشعراء نقده اللاذع بالتورية والفكاهة والدعابة فخرج مخرجاً كيساً مقبولا .

والحق أن الشعب المصرى كان — على علاته — ذا إحساس سياسى ناقد عجيب ، شارك به فى حادثات بلاده على اختلاف